ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 81-119
سؤال الهوية وأزمة الحداثة في الفكر العربي المعاصر

سؤال الهوية وأزمة الحداثة في الفكر العربي المعاصر

حمي نورالدين مطالسي
جامعة معسكر، noureddine.metalsi@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 22/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 07/ 11/ 2019

The issue of identity and the crisis of modernity in contemporary Arab thought.

Abstract:

This article is entitled: The Issue of Identity and the Crisis of Modernity in Contemporary Arab Thought. We tried to find out how the Arabs and Muslims should be towards the Western modernist project. To analyze this, we relied on three parts: The first one deals with the crisis as an instigator of identity and which is debated in the Arab societies and expressed by the latent face of Western modernity, which was embodied by the colonial experience of the West against the Arab people. This indicates the early beginnings of the relationship between the Arab self and the western one, characterized by tension and clash, due to the domination and control exercised on Arab societies. It is necessary to refer to the systematic policy adopted by the western colonizer in deforming the features of Arab identity; this latter made the

المؤلف المراسل: حمي نورالدين مطالسي
noureddine.metalsi@univ-mascara.dz

Arab self in the position of self defense. As a solution to this impasse, it was necessary to overcome this crisis, by avoiding the view that shorten history in a single moment, which serves as the black point that prevents us from progressing, also by thinking positively in the present, looking for a better future by separating the ideological side of the modernist project from its cognitive one. This is what we have analyzed through the second headline, entitled: The need to overcome the crisis and establish an open identity. Whereas, the third requirement was related to the question of Western modernity and the rethinking of identity. It revolves on the demand of reconsideration the relationship between the Arab self and the western one, as required by the challenges and current circumstances, which require objectivity and rational thinking, enabling us differentiate between them without losing our identity and originality.

Keywords: Identity; Modernity; Authenticity; difference; Privacy.

الملخص:

لقد جاء مقالنا موسوما بـ: سؤال الهوية وأزمة الحداثة في الفكر العربي المعاصر. وقد حاولنا من خلاله الوقوف على ما يجب أن نكون عليه كعرب ومسلمين إزّاء المشروع الحداثي الغربي. ولتحليل ذلك، فقد اعتمدنا في هذا المقال على ثلاثة مطالب، كان أولها: الأزمة كمحرض على التفكير في الهوية، حيث الكلام عن أزمة المجتمعات العربية بفعل

الوجه المضمر للحداثة الغربية، التي تجسد من خلال التجربة الاستعمارية التي خاضها الغرب ضد الشعوب العربية. وفي هذا حديث عن البدايات الأولى للعلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، التي تميّزت بالتوتر والصدام، بفعل الهيمنة والسيطرة التي مُورست على المجتمعات العربية. ولا بد من الإشارة هنا إلى السياسة الممنهجة التي اعتمدها المستعمر الغربي في طمس معالم الهوية العربية، وضرب ثوابتها، وهو الأمر الذي جعل الإنسان العربي دائما في موقع الدفاع عن الذات.

وكحل لهذا المأزق، كان لا بد من تجاوز هذه الأزمة، وعدم اختزال التاريخ في لحظة واحدة تكون بمثابة النقطة السوداء التي تثنينا عن الاستمرار والتقدم، والتفكير بإيجابية في الراهن والتطلع لمستقبل أفضل، وذلك بالفصل بين الجانب الإيديولوجي للمشروع الحداثي، وبين جانبه المعرفي. وهذا ما عالجناه من خلال المطلب الثاني، المعنون ب: ضرورة تجاوز الأزمة والتأسيس لهوية منفتحة. أمّا المطلب الثالث والأخير فجاء بعنوان الحداثة الغربية وإعادة التفكير في الهوية، حيث إعادة النظر في العلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، وفق ما تتطلبه التحديات والظروف الراهنة، التي باتت تتطلب عقلانية في التفكير، وموضوعية في النظر إلى الواقع، تجعلنا نقبل بالاختلاف مع الآخر، والتواصل معه،

والمشاركة في صناعة الحضارة الإنسانية، لكن دون أن نفقد هويتنا وأصالتنا.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الحداثة؛ الأصالة ؛ الاختلاف ؛ الخصوصية.

المقدمة:

يمكن القول بالأهمية القصوى التي تحظى بها إشكالية الهوية في الفكر العربي المعاصر اليوم. وذلك بالنظر إلى التحديات التي تواجهها المجتمعات العربية في الحقبة المعاصرة، بفعل الأحداث المتسارعة التي فرضت أشكالا جديدة من التعامل مع المفاهيم والمصطلحات. تحديات قد جعلت من المفكر العربي يعكف بجد على البحث وإعادة النظر في مكنونات الذات العربية، بغية الوقوف على الأصل الذي تصدر منه كل الأفعال والسلوكات الإنسانية، التي هي بمقام الترجمة العينية للفكر والثقافة التي ينتظم في متونها كل ما يشكل عناصر الهوية العربية في فرادتها وخصوصيتها، وأصالتها. ولا بد من الإشارة أنّ لعبارات الفرادة والخصوصية والأصالة في هذا المقام وقع خاص يجعلنا نقف على ما يقابلها من مصطلحات، من قبيل الكونية والاختلاف والمعاصرة.

فإذا كان السؤال المركزي الذي يُطرح في هذا المقام، يحتّم علينا البحث في أعماق الذات العربية وسبر أغوارها، فذلك من أجل الوقوف

على كل ما من شأنه تشويه مفهوم الهوية الذي تلقى من التأويلات والتفسيرات ما جعله محط جدل كبير بين المفكرين العرب، كما تلقى من الضربات بفعل التطورات العلمية، والقطائع الفكرية الغربية ما جعل المفكر العربي يرتكن إلى التفكير فيما ينبغي أن نكون عليه كعرب ومسلمين في ظل المستجدّات الفكرية والحضارية التي نواجهها اليوم. وهي المستجدّات التي لم تترك لنا مجالا للتفكير خارج أسوارها، حيث تبدو للبعض ألغاما وفخاخا تهدّد هوية المجتمعات العربية بنسف ثوابتها وأصالتها، كما تبدو للبعض الآخر بمثابة الحل الذي يُخرجنا من حالة التقوقع على الذات والانغلاق الذي يغذّيه منطق المحافظة على الثابت والأصيل لهذه الأمة. وبين طرفي هذه المعادلة، نجد أصحاب النظرة التوفيقية الذين يقولون بوجوب مسايرة ما يحدث في العالم شريطة ألّا نفقد هويتنا وأصالتنا، وكأنّنا في موقف يسمح لنا باختيار ما يصلح ويتلاءم مع شخصيتنا، وتجنّب ما يضرنا ويسلب قيمنا.

هكذا إذن، يتم التعاطي مع مفهوم الهوية بآراء مختلفة ومتباينة، تصل في بعض الأحيان إلى درجة التطرف والمغالاة في الرأي، سواء بتمجيد التراث وتقديسه ورفض كل ما يتعلق بالآخر (الغربي) وحضارته التي تحرّكها ثقافة الحداثة والعولمة، أو بتمجيد هذا الآخر الذي

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019
ص.ص 81-119

يرى فيه البعض حلا سحريا لأزمة التخلف التي تعاني منها المجتمعات العربية. وحتى التفكير في الحل الوسط الذي يُعفي صاحبه من السقوط في متاهة الغلو والتطرف، لم يعد يجدي نفعا على ما يبدو، فنحن لم نصل بعد، ولم نكتسب من القوة ما يجعلنا في مقام القادر على الاختيار بين الأمور، وبالتالي الخروج من مرحلة القبول والإذعان التي يميّزها القصور والتبعية، إلى مرحلة الحرية والانعتاق التي تكفل لنا المشاركة في صناعة الحدث العالمي ومسايرة الركب الحضاري دون خشية على هويتنا وشخصيتنا.

تجدنا والحالة هذه مرغمين على إعادة النظر والتفكير بعمق في مفهوم الهوية، لكن شريطة أن نترجم هذا الفكر إلى فعل وممارسة وعدم الاكتفاء بالقول والخطابات الجوفاء التي لم تعد تفي بالمطلوب، في خضم التحولات الفكرية الكبرى، والتطورات العلمية المتسارعة التي يشهدها المجتمع العالمي اليوم. وكلّ ذلك طبعا سيكون من أجل تلافي ما يجعل الإنسان العربي في موضع المتأزّم، الذي يجد نفسه دائم البحث عن وسائل الدفاع عن ذاته وشخصيته، وهي الوضعية التي ألهته عن التقدم ومسايرة ما يحدث في العالم من تطور علمي أبان في مضامينه عن قدرة صاحبه على الخلق والابتكار، وتجاوزه الدائم لذاته نحو غاياته التي

حدّدها وفق ما يتناسب مع تركيبته الفكرية والثقافية، التي يحكمها منطق التغير والصيرورة. وعلى هذا الأساس جاءت إشكاليتنا على النحو التالي: ما الذي يجب أن نكون عليه كعرب ومسلمين في ظل التحديات الفكرية والعلمية التي يشهدها المجتمع العالمي اليوم؟ وكيف لنا أن نتجاوز تلك الرؤى الأحادية التي تحتكر سلطة الدفاع عن الهوية، وفق ما يتصوره أقطابها من حجج وبراهين أبانت في مضمونها عن ثقافة الرفض والإلغاء للآخر؟

وقبل البداية في تحليل هذه الإشكالية، لا بأس أن نذكّر ببعض الدراسات التي اهتمت بموضوع الهوية العربية والحداثة الغربية، والتي اعتمدنا عليها في كتابة هذا المقال. ويمكن أن نذكر هنا (الجابري) من خلال كتابيه الموسومين: المشروع النهضوي العربي-مراجعة نقدية، وإشكاليات الفكر العربي المعاصر. المفكر اللبناني (على حرب)، وذلك باعتمادنا على كتبه المعنونة ب: حديث النهايات- فتوحات العولمة ومآزق الهوية، كتاب نقد الحقيقة، وكذا كتاب أزمنة الحداثة الفائقة. المفكر التونسي (فتحي المسكيني)، من خلال كتابيه: الهوية والزمان، والهوية والحرية-نحو أنوار جديدة. كما اعتمدنا كذلك على كتاب، إنية

وأصالة للمفكر الجزائري (مولود قاسم نايت بلقاسم)، وكتاب روح الحداثة للمفكر المغربي (طه عبد الرحمن).

ولا بد من الإشارة في آخر هذه المقدمة، أنّ الغرض من هذه الدراسة ليس تبني موقف من المواقف، أوالتحيّز لرأي معين على حساب رأي آخر. إنّ الغاية المتوخاة من هذا المقال، هي محاولة التوفيق بين مختلف الآراء بعيدا عن التعصب، والتأسيس لرأي يتماشى مع متطلبات الراهن، دون الإخلال أو المساس بمقومات هويتنا العربية الإسلامية.

الأزمة كمحرض على التفكير في الهوية.

1-1 في معنى الأزمة.

لا شك أن التفكير في الهوية، لم يكن لولا الظروف التي أحاطت بالمجتمعات العربية، والتي جعلتها تواجه أوضاعا اجتماعية وسياسية واقتصادية معقدة، كثّفت من قلق الإنسان العربي، وجعلته يعيش مأساة وجودية، أحسّ من خلالها ببداية تلاشي صورته التي وضعها لنفسه عبر اقتناعه الراسخ بأصالته وثوابته التي تؤسس لشخصيته العربية الإسلامية. وليس معنى ذلك أنّ الإنسان العربي كان غافلا عن أصله، أو حتى متناسيا لثوابته وقيمه، بالعكس فكل المتون الفكرية والثقافية التي دوّنها التاريخ عن التراث العربي الإسلامي، تثبت بجلاء خصوصية الهوية

العربية، وتشبّث الإنسان العربي بقيمه وثوابته. وإنّما المراد من القول بالظروف المعقدة التي جابهتها المجتمعات العربية، هو كلام عن الوضع الذي وجد فيه الإنسان العربي نفسه محاطا بعديد الأزمات التي فرضت عليه أشكالا جديدة من التعامل والتعاطي مع نمط الحياة الجديد، كما أرغمته على النظر والتأسيس لما يجب أن يكون عليه في ظل التحولات الكبرى التي أفرزتها الحضارة الغربية عبر مسارها الطويل الذي وُسم بكثافة الانجازات والتجاوزات على حد سواء.

فالقول بالأزمة كمحرض ومحرّك للفكر العربي فيما يخص موضوع الهوية، هو في حقيقته كلام عن بداية قلق أنطولوجي أرّق الذات العربية في كينونتها وحضورها في العالم، نتيجة الارتياب والشك في مضامين الحضارة الغربية، الذي أبان عن الحقيقة المزدوجة للمشاريع الفكرية والثقافية التي حركت تلك الحضارة. هكذا يمكننا الكلام عمّا باطنته الحداثة مثلا في متونها من سلبيات كشفت عن تناقضات عديدة، وانقلابات غيّرت من مسارها الذي كان مسطّرا لها، وذلك بمناقضتها لشعارات الحرية والمساواة والعدالة التي كانت تنادي بها. ((فالتجربة الحداثية الغربية التي رفعت شعار المساواة والتآخي بين البشر، إضافة إلى شعارات التقدم والتحرر، قد تحولت في جزء منها إلى تجربة استعمارية

(ابتداء من 1800م إلى حدود منتصف القرن العشرين) بل امبريالية، ثم عولماتية. وذلك لأنّ هذه التجربة قد اندغم فيها منذ بداياتها عنصران متنافران: التحرر والهيمنة، التقدم والسيطرة (السيطرة على الذات وعلى الآخر)). (سبيلا محمد، 2000: 52).

1-2 الحداثة الغربية بين التحرر والسيطرة.

إنّ الحداثة بسماتها وميزاتها الأساسية التي أعطت الأولوية للعقل، وأعادت للذات سلطتها، كما ركزّت على الحرية والارتداد على الذات عن طريق النقد، قد جعلت من أولوياتها تغيير نمط الحياة داخل المجتمعات الغربية في كل المجالات، الاقتصادية منها والسياسية وحتى الثقافية والفلسفية. ولا بد من الإشارة إلى أنّ صورة التغيير هذه، قد اتخذت شكل الثورة على كل قديم وعتيق من أجل التأسيس لراهن يختلف في كل معطياته عن الماضي. فعند الكلام عن الحداثة تجدنا إزاء ((حركية تحيل دائما على صراع لا يتوقف بين الجديد والقديم. وراهنيتها الفعلية هي كونها عمل واسع لتقويض الأنماط القديمة للوجود والمعرفة، وتوليد أنماط جديدة تنسجم مع الوجود الحاضر)). (منصف عبد الحق، 2010: 28).

إنّ عملية التوليد هذه، لم تكن إلّا عبر زعزعة ما كان يُعتبر ثابتا يحتكم في بنيته إلى المتعالي الذي أحجب عن الذات أحقيتها في المعرفة، وعن العقل سلطته في تقرير ما الذي ينظم حياة الإنسان، ويعطيها معنى لوجودها بعيدا عن كل ما ينافيه، ويقرر خارج سلطته. ((فلم يعد العقل مع الحداثة وميضا إلهيا داخل النفس بتعبير (بول هازار)، بل أصبح المركز الذي من خلاله تتحدّد كل زوايا النظر الخاصة بالمعرفة أو الممارسة، والسلطة النقدية التي توجّه ذاتها بذاتها وتشرع مبادئ كل استعمال ممكن للقدرة على التفكير)). (منصف عبد الحق، 2010: 42).

هكذا شكّلت التجربة الحداثية، نقطة حاسمة في تاريخ الحضارة الغربية من خلال التأصيل للحظة فارقة غيرت من نمط التفكير وأبعدت كل ما هو لاعقلاني من متونها، محدثة بذلك هزّات وتصدّعات عميقة طالت كل مجالات الحياة عبر تركيبة فكرية لا تعترف في مضمونها إلّا بالعقل كمعيار لتحديد معنى الحياة إجمالا. وقد تطلّب كل ذلك، إقالة لكلّ السلطات التي جعلت الإنسان يغترب عن حقيقته باعتباره كائنا عاقلا بامتياز، بما في ذلك السلطة الدينية التي تكفلت بتحديد ورسم كل الأطر التي كانت كفيلة بتكبيل الذات ووضعها في حيّز المأمور الذي ينتظر تعاليمه من السماء. وعلى هذا يبقى ((من المستحيل أن ندعو

مجتمعا يسعى قبل كل شيء إلى أن ينتظم وأن يعمل وفقا لوحي إلهي أو لذات قومية بأنّه حديث...إنّ فكرة الحداثة بهذا الشكل تعمل على إحلال العلم محل الله في مركز المجتمع، مفسحة المجال للعقائد الدينية في الحياة الخاصة)). (تورين آلان، 2010: 15/ 16).

من هنا ميلاد الذات الفاعلة، التي لم تدّخر جهدا في إثبات وجودها عبر سلسلة من التغيّرات العميقة التي أحدثتها على مستوى الفكر، والتي كثّفت من خلالها سلطتها وحضورها الذي أضحى مركزيا بعدما كان هامشيا تخضع الذات من خلاله لقوة أوسلطة خارجة عنها. ((هكذا أصبح مبدأ الذاتية مبدأ محدّدا في كل مجالات الفعل، ومحدّدا في كل أشكال الثقافة الحديثة. فالحق والأخلاق أصبحا قائمين على الإرادة الحالية الحاضرة للإنسان، في حين كانت من قبل مدونة ومملاة على الفرد. كما أصبحت الذاتية أساس المعرفة العلمية التي تكشف أسرار الطبيعة بقدر ما تحرر الذات العارفة. والطبيعة تصبح جملة قوانين شفافة ومعروفة من طرف الذات)). (سبيلا محمد، 2000: 18).

إنّ الحداثة بسماتها الأساسية المتمثلة في العقلانية والذاتية والحرية والنقد الذي مارسته ضد السلطات التقليدية، قد رسمت آفاقا فكرية وثقافية وحضارية جديدة تتناسب مع اللحظة الآنية والراهنة للإنسان

الحديث. وهي اللحظة التي كانت بمثابة زلزال عنيف عصف بنظم الفكر الغربي القديم، وعمل على خلق نظم أخرى جديدة لا تعترف إلّا بسلطة الذات التي أضحت تتمثّل الأشياء، بعقلانيتها التي غدت عنوانا يأتي على رأس كل القيم التي تؤسّس لحياة الإنسان داخل المجتمع. وهنا يمكن ((توصيف تصور الحداثة ووصف التحديث باعتباره إبداعا لمجتمع عقلاني. فقد تخيل هذا التصور المجتمع، أحيانا بمثابة هندسة معمارية قائمة على الحساب. وأحيانا جعل من العقل أداة في خدمة مصلحة ومتعة الأفراد. وأخيرا فقد استخدمه بمثابة سلاح نقدي ضد كل السلطات، وذلك من أجل تحرير (طبيعة إنسانية) كانت قد سحقتها السلطة الدينية)). (تورين آلان، 2010: 16).

ما يجب الإشارة إليه في هذا المقام، أنّ المشروع الحداثي الذي حمل في مضمونه لواء التجديد، والثورة على كل قديم، لم يكن ليتأسّس دون أن يُحدث تصدّعات عملت على نسف وتغيير الكثير ممّا كان يبدو ساكنا، مكتفيا بذاته لكي يكون ويوجد داخل المجتمعات، حتى أضحت ((الحداثة ليست غير سردية كبرى لإنسانية فقدت كثيرا من هويتها وباتت على شفا حفرة من تاريخ بلا توقيع. لم يعد الدين ولا القبيلة ولا العرق أسبابا كافية للانتماء، فطفق الفرد الحديث يبحث لنفسه عن

عنوان جديد لكيانه)). (المسكيني فتحي، 2005: 07). تجدنا والحالة هذه إزاء وضعيات حرجة، ومآزق وجودية تنم عن الوجه المضمر للحداثة الذي أبان عن الجانب السلبي لهذا المشروع من خلال انقلابه على المبادئ التي نادى بها، واستحالته إلى مشروع تمتزج فيه المتناقضات وتكثر فيه المفارقات. مشروع يمكن القول عنه أنّه أضحى لا يعترف بالخصوصيات الثقافية للشعوب ولا بثوابتها التي تجعلها مختلفة ومتميّزة، عبر إرغامها على تبنّي نمط من الحياة يختلف في جوهره عن أصالة هذه الشعوب، وبنيتها التراثية التي تكونّها. هكذا ((يؤكدّ أقوى تصور للحداثة الغربية، ذلك الذي أحدث التأثيرات العميقة جدا، أنّ العقلنة تفرض تدمير الروابط الاجتماعية، والمشاعر والعوائد والعقائد المنعوتة بالتقليدية)). (تورين آلان، 2010: 16). وفي هذا اكتشاف لأسلوب الحداثة، الذي لا ينفصل في تأثيره عن التفكيك والتفتيت للجوهر والأصل الذي ينبني على أساسه وجود المجتمعات وهويتها. ((فطريقة انتشارها لا تقل عن فعلها التفكيكي، فهي تنتشر بعنف وبقسوة مثلما تنتشر بلطف ودماثة. لقد تسربت إلى بقاع المعمورة وانتشرت فيها عبر الاستعمار الكلاسيكي الذي شكّل توسّعا لرأس المال وانتشارا للتقنية، وتمططا للهيمنة، لكنّها تمزج العنف برحيق اللطف، وتستمرئ السيطرة عبر تقديم الخدمات)). (سبيلا محمد، 2000: 91).

بهذا الشكل بدت نتائج التجربة الحداثية مخالفة للتوقعات التي كانت مرجوة منها، خصوصا فيما يتعلق بالقيم والحقوق الإنسانية التي تؤسس لوجود الإنسان وتعطي معنى لكينونته. وما يدل على ذلك هو الانقلاب الصارخ لهذه القيم، عبر الممارسات العنيفة التي بدت معالمها واضحة من خلال السيطرة على الذات وعلى الآخر بالاحتكام إلى معيار العقلانية الأداتية الذي لا يهتم أقطابه إلّا بالنتائج، وبالتالي الأخذ بالنجاح كمعيار أوحد وأساسي لكل الممارسات. وهذا ما عبّر عنه ((جان فرانسوا ليوتار من خلال كتابه، الوضع ما بعد حداثي الذي طرح فيه أفكار ما بعد الحداثة، والتي يمكن إجمالها في الاعتراض على مختلف قيم الحداثة كالتقدم والحرية والسعادة الفردية، والإقرار بفشل مشروع الحداثة الغربية. والدليل على ذلك الحروب التي عرفتها البشرية في العصر الحديث، بحيث تركت الإنسان يعيش بلا أوهام أو أساطير، أووفقا لتعبيره من دون نصوص سردية كبرى)). (بغوره الزواوي، 2012: 93).

1-3 تأثير الحداثة الغربية وتجلياتها على المجتمعات العربية.

ضمن هذا السياق إذن، تجدنا مرغمين على الحديث عن الحداثة وتجلياتها في الواقع العربي خصوصا وأنّ المشروع الحداثي في ذاته هو

مشروع غربي في أصله، ولم يتأسس إلّا وفق أصول ترتكز في أساسها على ثقافة تختلف في بنيتها عن الثقافة العربية الإسلامية. هكذا يمكننا الكلام عن مشروع غريب أُريد له أن يكون حاضرا في تفاصيل الحياة العربية الإسلامية، بخصوصيتها وثوابتها التي أكسبتها شخصية متميزة، وجوهرا أصيلا لا يتغير بتغيّر عوارضه. وقد كان لذلك وقع خاص في بداية تشكّل واقع جديد يعج بالتناقضات، بين ما تحياه المجتمعات العربية الإسلامية، وما هي مدعوة إن لم نقل مرغمة على الانخراط فيه.

وكبداية لا بدّ من الكلام عن الحداثة واتصالها بالواقع العربي. فقد كان اتصالا مريبا منذ بداياته الأولى، يعبّر عن أزمة وصدمة عربية اتجاه ما يحمله هذا المشروع من أطماع تجسدت عبر لغة استعمارية عملت على طمس أركان وقواعد الهوية العربية. ((فالتجربة الحداثية كما يرى محمد سبيلا، قد ارتبطت عند العرب بتجربة الصدمة الاستعمارية. فهما متقارنتان ومتلازمتان، ومن ثم كما يقول فإنّ الحداثة العربية ارتبطت بالعنف وبالغزو الاستعماري ... إنّها حداثة ارتبطت بالصدمة وانكسار الوعي واحتلال الأرض. وهو الأمر الذي جعل العرب يتخبطون ممزقين بين صورتهم عن أنفسهم كأحسن أمة أخرجت للناس، وأرسلت عبرها وبواسطتها آخر الرسالات وأجمل اللغات، وبين واقعهم

المتردي والمتدني في الرقعة العالمية من تخلف اقتصادي وتبعية سياسية وتأخر فكري)). (اليعقوبي عبد الرحمان، 2014: 67). وبلغة التحقيب الزمني لهذا الأمر، يمكننا القول أنّ ((مشروع الحداثة الأوربية قد عبّر عن نفسه ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خلال جملة من المفاهيم والتصورات تتناقض تماما مع تلك التي قامت عليها الحداثة في القرن الثامن عشر. ذلك لأنّه إذا كان هذا القرن هو بحق قرن إيديولوجيا الأنوار، فإنّ القرن التاسع عشر كان قرن إيديولوجيا الاستعمار)). (الجابري محمد عابد، 2009: 21).

هكذا كانت البداية التي تأسست من خلالها العلاقة بين الذات العربية وبين الآخر الغربي، علاقة انبنت على السيطرة والهيمنة التي وجدت تبريرها في حجج تبنّاها أصحابها لتكريس مبدأ السلطة الأبوية الذي لا يعترف للآخر بحقه في التفكير والحرية، والتعامل معه بمنطق القصور الذي يلغي وعيه وقدرته على صناعة مصيره وفق ما يتوافق مع أصالته وثوابته. ((فباسم العقل والعلم والتقدم، وهي الأسس التي قامت عليها الحداثة الأوروبية في القرن الثامن عشر، برزت في القرن الذي يليه نزعات فكرية تصب كلها في مجرى واحد، هو تكريس فكرة تقدم

الإنسان الأوروبي وجدارة أوروبا بالهيمنة على العالم لتمدينه ونشر الحضارة في أرجائه)). (الجابري محمد عابد، 2009: 24).

من هنا تلك النظرة الدونية للآخر غير الأوروبي، وإلغاء أحقيته في الممارسة الطبيعية للحياة باعتباره إنسانا أولا، وذا خصوصية تميزه عن الآخرين ثانيا، وذلك عبر سلسلة من الممارسات الهادفة في معظمها إلى إلغاء كينونته، وعدم الاعتراف به كشخصية لها هويتها ووجودها الأصيلين. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى مصطلح الاعتراف الذي يحمل في عمقه إقرارا بوجود الذات التي لا يمكن فصلها أو إقالتها عن حقوقها وهويتها التي انبنت عليها، في مقابل الاحتقار الذي يعبر عن كل أشكال السلب والنفي لهذه الذات، وتجريدها من كل ما يجعلها ذات واعية وفاعلة، بل وصانعة لمصيرها الذي يتحدّد وفق ما توفر لها من حرية في تقرير ما الذي يجب أن تكون عليه، استنادا إلى مجموع العناصر التي تشكّل في مضامينها ما يجعل منها ذاتا متميّزة ومختلفة عن الآخر الذي أراد فرض وصايته وسيطرته عليها.

ولا بد من الإشارة هنا، إلى الأثر الكبير الذي خلفته تلك الممارسات التي كانت تهدف في مجملها إلى السيطرة وفرض الوصاية، في تكوين عقد لازمت نفسية المجتمعات العربية اتجاه كل ما هو غربي،

والتعامل معه بمنطق الحيطة والحذر. هي ممارسات تشكّلت بسببها صورة عن الآخر باعتباره جحيما وعدوا، ولا يمكن تصوره إلّا كذلك. وبهذا الشكل ((اعتبر التيار الإسلامي أنّ الغرب معاد له بشكل منتظم ودائم، ولم يستطع فهم الأمور إلاّ من خلال هذا المنظور، منظور العداء والصدام والحرب والضرب)). (أركون محمد، 2001: 08).

مثل هذه المعطيات، قد أسهمت وبشكل كبير في خلق رؤى معادية للمشروع الحداثي، خصوصا عندما يتم التعامل مع متون هذا المشروع في صورته السلبية التي أبانت عن الهيمنة والسيطرة، التي ناقضت شعارات الأنوار ممثلة في الحرية والمساواة وحقوق الإنسان. من هنا يمكن القول ((بإيديولوجيا الكفاح التي نشأت وتبلورت أثناء فترة الاستعمار، ثم استمرت بعدئذ بدرجات متفاوتة. وقد كانت في البداية ذات طابع قومي علماني ثم أصبحت الآن ذات طابع إسلاموي أصولي)). (أركون محمد، 2001: 08). وهو الأمر الذي أحجب عن المجتمعات العربية من وجهة نظر أركون معرفتها الحقيقية بالحداثة في جانبها الفكري والتنويري. فكما يقول: ((إنّ إيديولوجيا الصراع والكفاح لا تزال تحول حتى الآن دون انتشار الحداثة الفكرية في بلاد العرب والإسلام. بمعنى آخر أيضا فإنّ الطابع الكفاحي-النضالي الذي لا يمكن لأحد أن ينكر دوره وأهميته في

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 81-119
سؤال الهوية وأزمة الحداثة في الفكر العربي المعاصر

بعض الفترات لا يزال يتغلب على الطابع المعرفي أوالابستمولوجي)). (أركون محمد، 2001: 08/ 09). فما الذي يعنيه ذلك يا ترى؟ وهل يمكن القول بأنّ الوجه السلبي للحداثة قد أحجب عن الذات العربية رؤيتها للوجه المشرق الذي تحويه، وبالتالي اختزالها في كل ما يجب التصدي له ورفضه حفاظا على الثابت والأصيل الذي يعدّ الضامن للهوية؟

2-ضرورة تجاوز الأزمة والتأسيس لهوية منفتحة.

2-1 التجربة الاستعمارية والحق في الدفاع عن الهوية العربية.

لا يمكن أن ننكر الدور الذي لعبته الحركات التحررية في المجتمعات العربية، لاسترجاع سيادتها وحريتها التي كلّفتها الكثير، وقدمت من أجلها تضحيات كبيرة أبانت عن تمسك الإنسان العربي بحقوقه وثوابته التي لا يمكن أن تنفصل عنه. فلغة الكفاح التي اعتمدتها الشعوب العربية كرد فعل على الاستعمار الغربي، كانت تعبيرا واضحا وترجمة فعلية لما هو طبيعي في الإنسان بصورة عامة، وفي الإنسان العربي بصورة خاصة. وإذا قلنا بالطبيعي هنا، فالمقصود بذلك الحرية والانعتاق من ربقة المستعمر، الذي أراد فرض وصايته على المجتمعات العربية، ونهب ثرواتها.

ولا يمكن التغاضي في هذا المجال عن الوسائل التي اتبعها المستعمر للوصول إلى غاياته ومحاولته تغليط الشعوب العربية، حيث التركيز على ضرب ثوابتها الأساسية، ومحاولة طمس كل عناصر الهوية العربية الإسلامية، والعمل على خلق كل سبل التفرقة وتشتيت وحدة هذه الشعوب، والتشكيك في أصالتها وثوابتها. ((فلا مراء أنّ غزو الغرب للعالم العربي الإسلامي قد ساعد على تفكيكه بتعميق الفرقة بين دوله وتوسيع الشقة بين شعوبه، بل أسهم في تجزئة هذا العالم باصطناعه كيانات ودويلات قام بحمايتها ومنحها ضربا من المشروعية. ولا عجب فإنّ السيطرة الغربية لم يُكتب لها النجاح إلّا على أساس التفرقة والتجزئة)). (حرب علي، 2000: 50). ولابد من الإشارة هنا أنّ آثار هذه الممارسات قد استمرت حتى بعد الاستقلال، حيث الإبقاء على كل ما من شأنه ضرب عناصر الشخصية العربية وتفكيكها. وكمثال على ذلك يمكننا الاستدلال في هذه النقطة، ((بالاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي ترك وراءه سمومه التي حاول بها اجتثاث عناصر شخصيتنا، وعمل كل ما في وسعه لاستئصال روحنا، ومسخ وإذابة ذاتيتنا)). (نايت بلقاسم مولود قاسم،2007: 19).

ولا شك أنّ تاريخ الأمة العربية الحديث، يشهد على حجم الضرر، وعلى عديد الضربات التي تلقتها شعوبها من قبل الاستعمار الغربي، كما يشهد كذلك وهذا هو المهم على الدور التخريبي والسياسة الممنهجة من أجل انتزاع هذه الشعوب من أصلها، والعمل على مسخ هويتها وشخصيتها. وهو الأمر الذي أثّر سلبا على المسار الحضاري للمجتمعات العربية، وعمل على إجهاض كل المشاريع التي من شأنها أن ترقى بهذه المجتمعات إلى مصاف الأمم المتقدمة. وفي هذا السياق يمكننا القول ((أنّ تعثر النهضة العربية، أي ما أصاب التحديث والحداثة من انتكاسات في الوطن العربي، يرجع في الأساس، لا إلى مقاومة داخلية من القوى المحافظة في المجتمع العربي، بل إلى الدور التخريبي الذي قام به الوجه الآخر للحداثة، الوجه الذي قوامه الداخلي (القوة والمنافسة)، وتطبيقه الخارجي الذي يتمثل في التوسع الاستعماري)). (الجابري محمد عابد، 2009: 20).

لكن ما يجب الإشارة إليه، في هذا المقام أنّه لا يمكن اختزال التاريخ في فترة واحدة معينة، تثنينا عن الاستمرار والتجاوز من واقع يأسرنا ويكبلنا، إلى واقع نتحرر من خلاله من كل الأفكار الدوغمائية التي لا تعمل إلّا على توجيهنا نحو السلبي والتطرف في النظر والفعل. والغرض من ذلك طبعا، هو عدم الوقوع في مأزق آخر، يُسقطنا في متاهة الغلو

والتطرف اتجاه الآخر، خوفا على قيمنا وثوابتنا، في زمن لم يعد ينفع فيه التوقع والانغلاق على الذات. إنّنا مطالبون بممارسة نوع من البراغماتية في التفكير في علاقتنا مع الآخر، حتى لا نعيش خارج دائرة الحضارة، ونُسهم بدورنا في صناعة الحدث العالمي.

2-2 نحو هوية منفتحة تتماشى ومتطلبات الراهن.

لا شك أنّ الظروف التي تعيشها المجتمعات العربية اليوم، لا تسمح بالارتكان إلى الذات وإلغاء الآخر، والتركيز على النقطة السوداء في تاريخ هذه الأمة، ممثلة في الجانب السلبي والوجه المضمر للحداثة المتمثل في الاستعمار الذي أبان عن حقيقة السيطرة، والهيمنة التي انتهجها الآخر الغربي، عبر فرض وصايته على المجتمعات العربية، باعتبارها مجتمعات قاصرة، وغير قادرة على فكّ العُقد التي تعاني منها جراء التطبيق الممنهج للأساليب الهادفة إلى عزل المجتمعات العربية، وحصرها دائما في موقع الدفاع عن الذات.

إنّ أكثر ما نحن بحاجة إليه اليوم، هو كيفية التخلص من عقدة الوصاية المفروضة علينا، وتجاوز عقدة القصور التي تلازمنا، والتفكير إيجابيا فيما يجب أن نكون عليه، بعيدا عن التركيز على أحادية النظر للأمور، والتعاطي مع ما يحدث في العالم بإيجابية، ومحاولة إدراك الجوانب

الإيجابية للفكر العالمي، والإفادة منه كي نكون فاعلين ومشاركين في صناعته، وليس منفعلين به فقط. ((فما يحتاجه المفكر العربي راهنا هو التدرب على نمط جديد من سياسة الحقيقة، تأخذ الحداثة بوصفها مكسبا مدنيا وليس عارضا مرضيا على ثقافة الأجنبي)). (المسكيني فتحي، 2001: 65). فنحن لا نعيش بمعزل عن الآخر، إننّا نعيش في العالم ونتقاسم الوجود مع هذا الآخر، باختلافنا الثقافي وانتمائنا الديني، وشخصيتنا المتميزة. وباعتبارها من الثوابت الأساسية إلى جانب اللغة والتاريخ والتراث، فإنّ هذه العناصر تشكل مجتمعة جوهر الهوية العربية وأصالتها.

وعلى هذا، يجب علينا أن نتعامل مع هذه الثوابت بشكل إيجابي يرقى بنا إلى مستوى يمكننا من خلاله التأكيد على حضورنا، وإثبات وجودنا وكينونتنا في ظل التحديات التي تشهدها الساحة الفكرية والحضارية. فبمثل ما تمثل هذه العناصر، ما يؤسس لفرادة المجتمعات العربية وخصوصيتها، فإنّه لا يجب أن تكون حائلا بين هذه المجتمعات وما يحدث في العالم. ((إنّ فرادتنا لا يجب أن تكون ادّعاءا عرقيا أوروحيا، بقدر ما يجب أن تكون معطى كونيا يجعلنا في صلة سابقة مع

كلّ من فكّر قبلنا، ولكن دون أن يكون تفكيره ذاك مانعا لوجودنا أوسببا للاستغناء عنّا)). (المسكيني فتحي، 2011: 11).

وعلى هذا الأساس يبقى ((البرنامج المنشود هو اختراع آداب جديدة للتوجه في الكون، لا يحق لأي جماعة أخلاقية أو دينية أن تفرضها أو تضبطها سلفا. فقط ثمة حق حيوي كوني من شأن كلّ بشري معاصر أن يتمتع به، ألا وهو الانتماء الجذري إلى النوع الإنساني مما يجعله مسؤولا مسؤولية فظيعة عن مصيره)). (المسكيني فتحي، 2011: 10).

لابد والحالة هذه، أن نعيد النظر في إشكالية التعاطي مع الراهن والتعامل معه، وفق ما تفرضه المستجدات الفكرية والحضارية، التي باتت تتطلب نوعا من الانفتاح على الآخر، بعيدا عن التطرف في الرأي، والمغالاة في التعامل مع الثوابت، التي تفقد الهوية حيويتها وديناميكيتها، وتزج بها في منطق السكون والثابت الذي لا يجدي نفعا في ظلّ التحولات الكبرى والمتسارعة التي يشهدها العالم اليوم.

إنّ الانغلاق على الذات، واعتماد منطق الدفاع عن الهوية الذي يتغذى في عمقه بلا معقولية النظر إلى الواقع، والاعتماد على الأجوبة الجاهزة سلفا باعتبارها حقائق مطلقة لا يمكن التنازل عنها، قد أثبت فشله في تجاوز الأزمات ومسايرة ما يحدث في العالم. بل أكثر من ذلك،

فقد أصبحنا نعيش تجربة الفشل، ليس من أجل الإفادة من تعثراتنا ومطباتنا، بقدر ما أصبحنا نعيش هذه التجربة وكأنّها قدر محتوم، أعطى للأزمة صورة العادي والطبيعي في مجتمعاتنا. والواقع ((أنّنا لسنا بحاجة اليوم إلى البرهنة على أنّنا بتنا أضعف ممّا كنّا عليه من قبل في مواجهة قوة الغرب. كيف لا وبعض الدول العربية هي إمّا محاصرة أو مدمرة أو مشاريع للتدمير. وخطاب الهوية يشهد بنفسه على نفسه، إذ هو خطاب حافل بمفردات الغزو والاختراق والاكتساح والمحو، في وصفه للعلاقة بين الثقافة الغربية والهوية الثقافية العربية)). (حرب علي، 2004: 20/ 21).

إنّ منطق الرفض للآخر، والتركيز على الجانب السلبي لمشاريعه، باعتبارها تفتيتا للهويات، وضربا للخصوصيات، وبالتالي التقوقع على الذات والانغلاق عليها، كإستراتيجية للدفاع عن الهوية وحمايتها، لم يفعل سوى أن زاد من تعميق الهوة بيننا وبين الآخر، في زمن لم يعد تنفع فيه العزلة، ولا الفكر الراديكالي الذي لا يرى إلّا ما يريد أن يراه، ولا يقبل إلّا ما يتماشى مع خصوصيته. ((فإذ نتعامل مع الهوية بمنطق الحراسة والمدافعة، فإنّنا سنزداد ضعفا ونخسر ما نريد المحافظة عليه، بقدر ما نفقد حيويتنا الفكرية وطاقتنا على المبادرة الفعالة والعمل الخلاق.

فحراسة الأفكار هي مقتلها. وانغلاق الهويات علامة على ضعفها)). (حرب علي، 2004: 23/ 24).

يمكن القول أنّ زمن الأحاديات، والتعصب للرأي في التعاطي مع مفهوم الهوية، وحتى الإيمان بالحقائق المطلقة، التي لا تقبل الشك، ولا النقد، لم يعد ينفع في زمن أصبح كل من يفكر فيه بطريقة دوغمائية ومتطرفة يقع خارج المركز، ويعيش في الهامش مأزوما بأفكار أُريد لها أن تكون مطلقة وسرمدية تتجاوز الزمان والمكان. ولا شك أنّ الخروج من حالة السكون الفكري هذه، قد بات مطلبا ملحا وضروريا، إذا ما نحن أردنا فعلا الانخراط في صناعة الحدث العالمي، ومسايرة الركب الحضاري. فنحن مجبرون على التخلي عن التفكير بعواطفنا، وبصورة انفعالية في الآخر باعتباره يمثل تهديدا لهويتنا، والتركيز فقط على الصورة السلبية له، التي تختزله في كونه جحيما وعدوا، يستلزم منّا الحيطة والحذر. ولا شك أنّ سبب كل ذلك مردّه ((أنّنا لم نستعمل من أنفسنا القديمة إلى حدّ الآن إلّا سطحها الهووي الصاخب والعنيف والمهزوز. ونعني بالأساس انفعالاتنا القومية والدينية. وعلى هذا الأساس نحن أحوج ما نكون إلى إعادة إنصات شديد لأنفسنا...في بعدها البشري

الكوني، بعيدا عن أيّة أجوبة ثقافية نهائية حول من نكون أو ما يجب علينا أن نفعل)). (المسكيني فتحي، 2011: 11).

لا بد والحالة هذه، أن نخرج من وضعية المتأزّم الذي لا يفعل سوى أن يدافع عن هويته، وأن نتجاوز منطق التفكير العقيم الذي يُسقطنا في متاهة الغلو والتعصب للرأي، بدافع الحيطة والحذر الذي أحجب عنّا حقيقة ما يحدث في العالم. إنّنا مجبرون على التفكير خارج الأسوار التي نعيش في سجونها، مكبّلين بأغلال الفكر الأحادي الذي يرسّخ أوهام المطلق والمتعالي في أذهاننا، ويؤسس لشروخ كبيرة بيننا وبين الواقع، كما يؤسس لثقافة النبذ والرفض للآخر. ولهذا ((لا ينبغي النظر إلى شخص من الأشخاص نظرة وحيدة الجانب...فذو النظرة المغلقة لا يرى إمكانا للتلاقي مع الآخر، بل يرى فيه الغرابة كلها أو الشر كلّه. بينما ذو النظرة المنفتحة يطمع دوما في أن يكتشف في أي شخص وجها يلتقي به معه، أيا كان ابتعاده عنه)). (حرب علي، 2000: 87).

من الواضح أنّنا بحاجة ماسة إلى فكر متفتح يحملنا إلى قبول الآخر، والاعتراف به كطرف أساسي لمعرفة ذواتنا. ولا شك أنّ السبيل الأمثل لذلك، هو القبول بمنطق الاختلاف باعتباره الطبيعي الذي يجب الاعتماد عليه في بناء علاقاتنا الإنسانية، في زمن لم يعد ينفع فيه الفكر الأحادي

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 81-119
سؤال الهوية وأزمة الحداثة في الفكر العربي المعاصر

الذي يلقي بصاحبه إلى تبني لغة النبذ والإقصاء للآخر، باعتباره عدوا يهدّد هويتنا وثوابتنا. وفي هذا مكمن الخطر، إذ يتم ((التعامل مع الهوية كعصاب أو كقوقعة أو كفخ..والحصيلة هي تدمير صيغ التعايش بيننا في الداخل، بقدر ما ننصب الحواجز الرمزية والمادية بين دوائر المجتمع المدني، ونستعدي العالم في الخارج، بقدر ما نقع فريسة ثوابتنا البائدة وأوهامنا الخادعة)). (حرب علي، 2005: 23).

يبقى لزاما علينا إذن، أن نغير من طريقة تفكيرنا في التعاطي مع إشكالية الهوية، ومفهوم الأصالة والثابت، الذي لا يجب أن يكون حائلا بيننا وبين ما يحدث في العالم. بل إنّنا مجبرون على تجاوز فكرة أنّه يجب علينا أن نكون دائما في موقف الدفاع عن هويتنا وأصالتنا، وأن نكون على بيّنة بالفاصل الذي يجعلنا نقف على الفارق بين الجوانب المعرفية والحضارية للمشاريع الغربية، وبين الجانب الإيديولوجي الذي شوّه الوجه الإيجابي لهذه المشاريع خصوصا الحداثية منها. ((إنّ ما يجب التأكيد عليه في هذه النقطة، هو التمييز اليقظ بين ما هو معرفي وما هو إيديولوجي سواء في المنجزات الغربية الحضارية أو في الدعوات الحداثية لمفكرينا)). (اليعقوبي عبد الرحمن، 2014: 108/ 109). ويجب أن نعترف في هذا المقام، بأنّ الأمر ليس بالبسيط والهيّن الذي يجعلنا نقف على مثل

هذا الفاصل والفارق، خصوصا وأنّ الغرب كما يقول الجابري ((كان ولا يزال بالنسبة إلى العرب العدو الذي يجب الاحتراز منه والوقوف ضد مطامعه وسيطرته من جهة، والنموذج الذي يُغري باقتدائه والسير في ركابه من جهة أخرى)). (الجابري محمد عابد، 1990: 27).

3- الحداثة الغربية وإعادة التفكير في الهوية.

في بداية هذا المطلب، لا بد من التوضيح أنّ إعادة التفكير في الهوية ليس معناه التشكيك في الثوابت والأصول التي انبنى عليها مفهوم الهوية العربية الإسلامية، وليس معناه كذلك الانسلاخ عن القيم والمعايير التي تعبر عن حقيقة الشخصية العربية. إنّما المراد من هذا العنوان، هو محاولة الكلام فيما ينبغي أن نكون عليه كعرب ومسلمين في علاقتنا بالحداثة الغربية. ولا شك أنّ هذه العلاقة كانت في أغلب الأحيان متوترة، بل أكثر من ذلك، يمكن القول أنّها علاقة انبنت على حب السيطرة والهيمنة على الآخر، حيث التفكير في جعل هذا الآخر تابعا وخاضعا لإرادة المسيطر. وفي هذا يمكن الكلام ((عمّا يصطلح عليه بالصدمة الحضارية التي كان سببها أنّ الغازي هو الغرب والمغلوب هم العرب الحاملون لتراث حضاري كان في وقت من الأوقات يتنافس مع هذا الغرب نفسه من أجل السيطرة على العالم، وليست النزالات بين الطرفين بقليلة على

طول التاريخ)). (اليعقوبي عبد الرحمن،2014: 70). هكذا تجدنا إزّاء تاريخ يعج بشتى أشكال التناقضات التي ميزها الصدام بين الأنا العربية والآخر الغربي، وفق ما توفر لكل طرف منهما الفرصة في إثبات أولويته وقدرته على التحكم في زمام الأمور، وإعطاء معنى لوجوده وكينونته عبر محطات التاريخ المختلفة.

إنّ إعادة التفكير في الهوية وعلاقتها بالحداثة الغربية، هو في حقيقته إعادة النظر في العلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، وفق ما تفرضه التحديات العالمية، التي باتت تتطلب أشكالا جديدة في التعامل مع الآخر. ولا شك أنّ الرهان القائم هنا، هو الوصول إلى التوفيق بين خصوصيتنا التي تجعلنا متميزين عن الأمم الأخرى وفق ما نحوزه من قيم وثوابت تعبر في عمقها عن حقيقة الشخصية العربية الإسلامية، وبين الكونية العالمية التي تجعلنا ننتمي إلى الجماعة الإنسانية. إنّ هويتنا بهذا الشكل لا يجب أن تكون عائقا أمام الركب الحضاري، ومسايرة ما يحدث من تقدم في شتى المجالات. وعلى هذا الأساس يجب التأكيد على ضرورة الانفتاح على الآخر، ونبذ ثقافة الإقصاء والرفض له، بحجة الحفاظ على القيم والثوابت العربية الإسلامية.

إنّ التطرف في الفكر فيما يخص مسألة الهوية، سواء بمنطق الرفض للآخر والتعصب للرأي بهدف الحفاظ على الثابت والأصيل، أوبمنطق تمجيد هذا الآخر لدرجة التقليد المطلق الذي يجعلنا قاصرين، وفاقدين لروح الإبداع، هو في حقيقته قتل للهوية، وتكريس لمنطق التبعية للغير. ويمكن ترجمة كل هذا بما يسميه (طه عبد الرحمن) بشبهة تمييع الهوية، حيث ((الهوية الصمّاء التي تتولد من النظر إلى الذات بعين الذات، والنظر إلى الآخر بعين الذات كذلك، وكذا الهوية المائعة التي تتولد من النظر إلى الذات بعين الغير، والنظر إلى الغير بعين الغير كذلك)). (عبد الرحمن طه، 2006: 158).

إنّ ما نحن بحاجة إليه فعلا، هو التعاطي مع مفهوم الهوية بشكل عقلاني وحيوي يجعلنا فاعلين ومشاركين في بناء الحضارة الإنسانية، مع الحفاظ على خصوصيتنا التي تضمن لنا وجودا متميزا بين الأمم، وفق قيم وثوابت تؤسس لحقيقة شخصيتنا، وتعطيها معنى إيجابيا دون أن تكون حائلا بيننا وبين ما يحدث في العالم. ((فالأصالة كما يقول (نايت بلقاسم)، ليست الجمود في المكان، والخمود في الزمان، والتقوقع حول النفس، والانغلاق عن الغير، والتوقف عن السير، والتخلف عن الركب العالمي، بل هي الزحف إلى الأمام والبروز إلى فوق، والضرب بالمنكبين

ورفع الراية عالية لتنبىء عن الوجود المتميز المزاحم)). (نايت بلقاسم مولود قاسم، 2007: 12).

ولا شك أنّ هذا الأمر لن يتم إلّا بالتفتح على الآخر، والتواصل معه وفق ما يضمن للمجتمعات العربية الإسلامية وجودا إنسانيا أصيلا بعيدا عن الزيف الذي يشوّه معنى الحياة، ويقرّبنا إلى العدم الذي يُلغي كينونتنا بين الأمم. إن التفتح المقصود هنا، هو ذلك الذي يجعلنا نفرض وجودنا بصورة عقلانية، وأن نرى الأمور كما هي في الواقع، وليس كما نتوهمها برؤية انفعالية تُلغي العقل، وتفتح المجال واسعا لتأويلات وتفسيرات سلبية تحجب عنّا الحقيقة الموضوعية، سواء تعلقت هذه الحقيقة بذاتنا نحن أو بالآخر. فأن نكون متفتحين اتجاه الآخر، معناه الاستفادة والإفادة في صناعة الحضارة الإنسانية، والوقوف الند للند مع الآخر الغربي دون عقدة نقص اتجاهه، تجعلنا دائما في مقام التابع والقاصر، الذي لا يرقى حتى إلى مستوى التفكير لنفسه وبنفسه. كما لا يجب أن نفهم التفتح بمعنى الذوبان في الآخر، وتقليده بصورة مطلقة، تجعلنا نفقد كل ما يشكل هويتنا من قيم وثوابت وأصول. ((فالتفتح والعالمية إذا لم يقوما على الإنية والأصالة، يكون صاحبهما ضائعا، معلقا في الهواء، مجتثا مستأصلا لا متأصلا، بدون جذور عميقة ، ولا شخصية

مميزة...بل يصبح معرضا للزوابع كريشة في مهب الرياح، ينجرف في اتجاه التيار الأقوى، ومصيره التبعية العمياء حتى العدم أواللاوجود)). (نايت بلقاسم مولود قاسم، 2007: 12).

ولاشك أنّ ما نحن بحاجة إليه أكثر، هو التمرّن على قبول الآخر والتعايش معه رغم الاختلافات العرقية والعقائدية والثقافية التي تميزّنا عنه. إنّنا مدعوون إن لم نقل مُجبرون على تغيير نمط تفكيرنا فيما يخص مفهوم الاختلاف، وعدم التعامل معه كسلب للذات، وتفتيتا للهوية. إن التفكير العقلاني والنظر إلى الأمور بإيجابية، يجعلنا نتجاوز الفكر الأحادي والمطلق، ونتعالى على كل الرغبات والأهواء التي من شأنها أن تسقطنا في متاهة الحقيقة المزيّفة والعبثية.

إنّ عقلانية التفكير في الآخر تجعلنا نتعامل مع مفهوم الاختلاف باعتباره مكمّلا للهوية، ووسيلة لمعرفة الذات على حقيقتها، بعيدا عن كل تمذهب أو تعصب في الرأي يُوهمنا بامتلاك الحقيقة المطلقة. هكذا ((يبقى الآخر شرطا ضروريا لوعي الذات لنفسها، كما أكّد ذلك فلاسفة كبار مثل هيجل وسارتر وميرلوبونتي. وأنّ الوعي الذاتي هو في كل لحظة متجه نحو الآخر، وإنّنا والآخرون نوجد في نفس العالم نشترك في نفس خصائص الوجود.

وهكذا فإنّ الصورة التي نكونّها عن الآخر مرتبطة بالصورة التي نعي بها الذات. فكما نعي الآخر فإنّنا نعي ذاتنا)). (اليعقوبي عبد الرحمن، 2014: 95). لكن هذا ليس معناه أن نفرض على الآخر صورة طبق الأصل لذاتنا أو شخصيتنا، وإلّا أقصيناه ونبذناه، وبالمثل لا يجب أن نكون صورة طبق الأصل لهذا الآخر من حيث تقليده، والتماهي معه بصورة مطلقة تُلغي خصوصيتنا وانتمائنا العربي الإسلامي. فالعلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي، يجب أن تكون متوازنة تقوم على الاحترام لخصوصيات وثوابت كل طرف، والاعتراف به كأساس وعنصر ضروري لتحقيق انتمائنا للمجتمع الإنساني، مع الإبقاء على الأصل والثابت الذي يعبر عن حقيقة شخصيتنا وهويتنا، والذي لا يجب أن يكون حائلا أو سدّا نحو التحضر والمشاركة في صناعة الحدث العالمي.

خاتمة:

يمكن القول في خاتمة هذا المقال، أنّ إشكالية الهوية تعتبر من بين الإشكاليات الرئيسية التي حظيت باهتمام كبير من قبل المفكرين العرب. خصوصا عندما يتعلق الأمر بما ينبغي أن تكون عليه المجتمعات العربية، في ظل التحديات التي يشهدها المجتمع الإنساني، الذي لم يعد يرتكن إلى السكون، بقدر ما أصبح مسرحا لمشاريع حضارية كبرى، وتطورات

علمية متسارعة، فرضت أشكالا وأنماطا جديدة في التعامل مع أبجديات الحياة بصورة عامة.

ولا شك أنّ الحداثة الغربية، تعتبر من بين المشاريع الكبرى التي قلبت موازين الفكر، وغيّرت من طريقة التفكير التي أصبحت تعتمد في أساسها على سلطة العقل، وإعادة الاعتبار للذات، فاتحة بذلك المجال أمام حرية الفكر، وجاعلة من أولوياتها الارتداد على الذات عن طريق النقد الذي أعاد من خلاله الإنسان الغربي النظر في كل متونه الفكرية عبر التاريخ. هذا إذا ركّزنا طبعا على الجانب الإيجابي للمشروع الحداثي. أمّا إذا دقّقنا النظر فيما يُضمره هذا المشروع، فيمكننا أن نقف على ما يقابل تلك الإيجابيات، وذلك من خلال السيطرة التي أضحت تمارس على الإنسان وتقويض حريته، حتى تحولت التجربة الحداثية إلى تجربة استعمارية مورست على الشعوب وخاصة العربية منها.

من هنا ذلك التوتر والصدام الذي ميّز العلاقة بين الذات العربية، والآخر الغربي الذي أبان عن الوجه المضمر للمشروع الحداثي، من خلال الهيمنة والسيطرة التي مارسها على الشعوب العربية الإسلامية. وهو الأمر الذي أدّى إلى اختلاف وتباين ردود الفعل اتجاه الحداثة، حيث رأى فيها البعض تفتيتا وتفكيكا للهويات، وبالتالي يجب رفضها

حماية للثوابت والقيم التي تؤسس حقيقة الشخصية العربية. في المقابل هناك من رأى فيها الحل الأمثل للخروج من دائرة التخلف التي تعاني منها المجتمعات العربية، ومسايرة الركب الحضاري.

وحيث لا ينفع الانغلاق التام على الذات الذي يجعلنا نعيش على الهامش، ولا الانفتاح المطلق الذي يجعلنا نذوب في الآخر ونتماهى معه بصورة تجعلنا ننسلخ عن ثوابتنا، فإنّنا مجبرون على التفكير بموضوعية، وإعادة النظر فيما ينبغي أن نكون عليه كعرب ومسلمين، إزّاء المشروع الحداثي الغربي. يجب علينا أن نفكر بعقلانية، تتعالى على كل الأهواء والرغبات، وأن نفصل بين الجانب الإيديولوجي لهذا المشروع وبين جانبه المعرفي والعلمي، الذي نستفيد منه ونستثمر فيه بطريقة تجعلنا نخرج من مرحلة القصور والتبعية، إلى مرحلة الإبداع والإسهام في صناعة الحضارة الإنسانية. هكذا يجب أن نتعامل مع الهوية، بصورة إيجابية وحيوية، تجعلنا نؤمن بالاختلاف مع الآخر والتواصل معه بصورة عقلانية، ترقى بنا إلى مصاف الأمم المتقدمة، مع الحفاظ طبعا على خصوصيتنا التي تجعلنا متميزين بقيمنا وثوابتنا العربية الإسلامية.

المراجع:

أركون محمد، (2001). **الإسلام، أوربا، الغرب. رهانات المعنى وإرادات الهيمنة**، تر: هشام صالح، ط1، بيروت، دار الساقي.

بغورة الزواوي، (2012). ((**الفكر الأخلاقي لما بعد الحداثة**)). **مجلة عالم الفكر**، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، **المجلد** 41، العدد 02.

تورين آلان، (2010). **نقد الحداثة**، تر: عبد السلام الطويل، ط1، المغرب، أفريقيا الشرق.

الجابري محمد عابد، (1990). **إشكاليات الفكر العربي المعاصر**، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

الجابري محمد عابد، (2009). **المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية**، ط3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

حرب علي، (2000). **نقد الحقيقة**، ط3، المغرب، المركز الثقافي العربي.

حرب علي، (2004). **حديث النهايات. فتوحات العولمة ومآزق الهوية**، ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي.

حرب علي، (2005). **أزمنة الحداثة الفائقة**، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي.

سبيلا محمد، (2000). **الحداثة وما بعد الحداثة**، ط1، المغرب، دار توبقال للنشر.

عبد الرحمن طه، (2006). **روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية**، ط1، المغرب، المركز الثقافي العربي.

المسكيني فتحي، (2001). **الهوية والزمان**، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.

المسكيني فتحي، (2005). **الفيلسوف والإمبراطورية**، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.

المسكيني فتحي، (2011). **الهوية والحرية، نحو أنوار جديدة**، ط1، بيروت، جداول لنشر والتوزيع.

منصف عبد الحق، (2010). **الأخلاق والسياسة كانط في مواجهة الحداثة بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسية**، ط1، المغرب، أفريقيا الشرق.

نايت بلقاسم مولود قاسم، (2007). **إنية وأصالة**، ط1، الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

اليعقوبي عبد الرحمن، (2014). **الحداثة الفكرية في التأليف الفلسفي العربي المعاصر**، ط1، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات.